منه ، وهو لن يستطيع أن ينزلَ إلى مستوى البشرية ليأخذوا منه ؛ ولذلك شاء الحق سبحانه أن يرسل الرسول من جنس البشر .

وهكذا أبطل الحق سبحانه حُجَّتهم فى عدم الإيمان بالرسول ؛ لأنه لم يأتِ من جنس الملائكة ؛ وأبطل حُجَّتهم فى طلبهم أن ينزل مع الرسول ملائكة ؛ ليُؤيِّدوه فى صدْق بلاغه عن الله .

ولذلك يقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ[1] وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ ﴾

وهكذا يُعلِّمنا الحق سبحانه أنه لا يُنزِّل الملائكة إلا بمشيئة حكمته سبحانه ، ولو نزل الملَك ـ كما طلبوا ـ لمساعدة رسول الله ﷺ فى البلاغ عن الله ؛ فالملَك إما أن يكون على هيئة البشر ؛ فلن يستطيعوا تمييز الملَك من البشر ، وإما أن يكون على هيئة الملك ، فلا يستطيع البشر أنْ يروْه ؛ وإلاَّ هلكوا .

ذلك أن البشر لا تستطيع تحمُّل التواصل مع القوة التى أودعها الله فى الملائكة .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ ولوْ أنزلْنا ملَكًا لقُضى الأمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُون[2] ﴿٨﴾ ﴾ [الأنعام]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧٢٨) : « معنى ﴿ إلا بالحق .. ﴿٨﴾ ﴾ [الحجر] إلا بالقرآن . وقيل : بالرسالة ، عن مجاهد . وقال الحسن : إلا بالعذاب إن لم يؤمنوا » .

(٢) أنظره : أخره وأمهله وتأنى عليه . [القاموس القويم ٢/٢٧٣] .

ولو جعله الحق سبحانه في هيئة البشر وتواصلوا معه لالتبس عليهم الأمر ، ولظنُّوا أن الملَك بشرٌ مثلهم .

وفي هذا يقول الحق سبحانه :

﴿ ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون (٩) ﴾ [الأنعام]

لم يُنزل الحق سبحانه الملائكة : لأنه لم يشأ أن يُهلكهم ورسولُ الله فيهم ، فالحق سبحانه قد قال :

﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون (٣٣) ﴾ [الأنفال]

وقد آمن معظمهم ودخلوا في دين الله من بعد ذلك واستغفروا لذنوبهم ، وكان الله غفوراً رحيماً ؛ لأن الإسلام يَجُبُّ[1] ما قبله .

وحين ننظر إلى صدْر الآية نجد أنه سبحانه قال :

﴿ ما نُنزِلُ المَلائكة إلاَّ بالْحقِّ .. (٨) ﴾ [الحجر]

فلو نزلت الملائكة لكان عذاباً لهم ، فالحق سبحانه إذا أعطى قوماً آية طلبوها ، فإما أن يؤمنوا ، وإما أن يهلكهم ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وما منعنا أن نُرْسل بالآيات إلاَّ أن كذَّب بها الأوَّلون (٥٩) ﴾ [الإسراء]

---

(١) أي : يقطع ويمحو ما كان قبله من الكفر والمعاصي والذنوب . [قاله ابن منظور في لسان العرب - مادة : جبب] .

فالحق سبحانه لم يُجبهم إلى الآيات والمعجزات التى طلبوها ؛ لأن السابقين لهم ، كذَّبوا بها قبل ذلك ، وهم يريدون أن يُكذِّبوا أيضاً ، فحتى لو نزلت الآية فسيكذبونها ، وحين يكذبون فى آية مقترحة من عندهم ، فلا بُدَّ أن نهلكهم . أما لو كذبوا فى آية مُنزَّلة من عند الله فإن الله يمهلهم .

إذن : فلو نزلنا الملائكة كما يريدون فسننزلهم بالحق ، والحق هو أن نهلكهم إذا كذَّبوا .

ويذيل الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ وما كانوا إذا مُنظرين (٨) ﴾ [الحجر]

أى : ما كان أجلُ المشركين قد حانَ ليُنزل الله لهم الملائكة لإهلاكهم ، كما سبق وأهلك الأمم السابقة التى طلبتْ الآيات ، فنزلت لهم كما طلبوها ، ولمَّا لم يُصدِّقوا ويؤمنوا أهلكهم الله .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

والقرآن قد جاء بعد كُتب متعددة ، وكان كل كتاب منها يحمل منهج الله ؛ إلا أن أىَّ كتاب منها لم يكُنْ معجزة ؛ بل كانت المُعْجزة تنزل مع أىِّ رسول سبق سيدنا رسول الله ﷺ ، وعادة ما تكون المعجزة من صنْف ما نبغ فيه القوم الذين نزل فيهم .

وما دام المنهج مفصولاً عن المعجزة ؛ فقد طلب الحق سبحانه من الحاملين لكتب المنهج تلك أنْ يحافظوا عليها ، وكان هذا تكليفاً

من الحق سبحانه لهم . والتكليف ـ كما نعلم ـ عُرْضة أنْ يُطاع ، وعُرْضة أنْ يُعصى ، ولم يلتزم أحد من الأقوام السابقة بحفظ الكُتب المنزّلة إليهم .

ونجد الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يقول :

﴿ إنّا أنزلنا التّوراة فيها هُدى ونُورٌ يحكُمُ بها النّبيُّون الّذين أسْلمُوا للّذين هادُوا[1] والرّبّانيُّون والأحْبارُ[2] بما اسْتُحْفِظُوا من كتاب اللّه .. (٤٤) ﴾ [المائدة]

أي : أن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ قد كلّفهم وطلب منهم أنْ يحفظوا كتبهم التي تحمل منهجه ؛ وهذا التكليف عُرْضة أنْ يُطاع ، وعُرْضة أنْ يُعصى ؛ وهم قد عصوا أمر الحق سبحانه وتكليفه بالحفظ ؛ ذلك أنهم حرّفوا وبدّلوا وحذفوا من تلك الكتب الكثير .

وقال الحق سبحانه عنهم :

﴿ وإنّ فريقًا منهُمْ ليكْتُمُون الحقّ وهُمْ يعْلمُون (١٤٦) ﴾ [البقرة]

بل وأضافوا من عندهم كلاماً وقالوا : هو من عند الله ؛ لذلك قال فيهم الحق سبحانه :

﴿ فويْلٌ للّذين يكْتُبُون الْكتاب بأيْديهمْ ثُمّ يقُولُون هذا منْ عند اللّه ليشْتُرُوا به ثمنًا قليلاً فويْلٌ لّهُم ممّا كتبتْ أيْديهمْ وويْلٌ لّهُم ممّا يكْسبُون (٧٩) ﴾ [البقرة]

---

(١) الهَوْد : التوبة . وهاد يهود : تاب ورجع إلى الحق . هادوا : دخلوا في اليهودية . [لسان العرب ـ مادة : هود] .

(٢) الحبر (بفتح الحاء وكسرها) : العالم ، وجمعه أحبار [القاموس القويم ١/ ١٤٠] . وقال ابن منظور في [اللسان مادة : حبر] : معناه العالم بتحبير الكلام والعلم وتحسينه .

وهكذا ارتكبوا ذنوب الكذب وعدم الأمانة ، ولم يحفظوا الكتب الحاملة لمنهج الله كما أنزلها الله على أنبيائه ورُسله السابقين على رسول الله ﷺ .

ولذلك لم يَشأ الحق سبحانه أن يترك مهمة حفظ القرآن كتكليف منه للبشر ؛ لأن التكليف عُرْضة أنْ يُطاع وعُرْضة أنْ يُعصى ؛ فضلاً عن أن القرآن يتميز عن الكتب السابقة في أنه يحمل المنهج ، وهو المعجزة الدالة على صدْق بلاغ رسول الله ﷺ في نفس الوقت

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر]

والذِّكْر إذا أُطلق انصرف المعنى إلى القرآن ؛ وهو الكتاب الذي يحمل المنهج ؛ وسبحانه قد شاء حفْظه ؛ لأنه المعجزة الدائمة الدَّالة على صدْق بلاغ رسوله ﷺ .

وكان الصحابة يكتبون القرآن فوْرَ أن ينزل على رسول الله ﷺ ، ووجدنا في عصرنا من هم غير مؤمنين بالقرآن ؛ ولكنهم يتفنَّنون في وسائل حفْظه ؛ فهناك مَنْ طبع المصحف في صفحة واحدة ؛ وسخَّر لذلك مواهب أُناس غير مؤمنين بالقرآن .

وحدث مثل ذلك حين تَمّ تسجيل المصحف بوسائل التسجيل المعاصرة . وفي ألمانيا - على سبيل المثال - توجد مكتبة يتم حفْظ كل ما يتعلق بكل آية من القرآن في مكان مُعيَّن مُحدَّد .

وفي بلادنا المسلمة نجد مَنْ ينقطع لحفظ القرآن منذ الطفولة ، ويُنهي حفْظه وعمره سبع سنوات ؛ وإنْ سألته عن معنى كلمة يقرؤها فقد لا يعرف هذا المعنى .

ومن أسرار عظمة القرآن أن البعض ممَّنْ يحفظونه لا يملكون أية ثقافة ، ولو وقف الواحد من هؤلاء عند كلمة ؛ فهو لا يستطيع أنْ يستكملها بكلمةٍ ذات معنى مُقارب لها ؛ إلى أنْ يردَّه حافظٌ آخر للقرآن .

ولكي نعرف دقَّة حفْظ الحق سبحانه لكتابه الكريم ؛ نجد أن البعض قد حاول أن يُدخل على القرآن ما ليس فيه ، وحاول تحريفه من مدخل ، يرونَ أنه قريب من قلب كل مسلم ، وهو توقير الرسول ﷺ ؛ وجاءوا إلى قول الحق سبحانه :

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

وأدخلوا فى هذه الآية كلمة ليست فيها ، وطبعوا مصحفاً غيَّروا فيه تلك الآية بكتابتها « محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » وأرادوا بذلك أن يسرقوا عواطف المسلمين ، ولكن العلماء عندما أمسكوا بهذا المصحف أمروا بإعدامه وقالوا : « إن به شيئاً زائداً » ، فردَّ مَنْ طبع المصحف « ولكنها زيادة تحبونها وتُوقِّرونها » ، فردَّ العلماء : « إن القرآن توقيفيٌّ ؛ نقرؤه ونطبعه كما نزل » .

وقامت ضجَّة ؛ وحسمها العلماء بأن أىَّ زيادة - حتى ولو كانت فى توقير رسول الله ﷺ ومحبته - لا تجوز فى القرآن ، لأن علينا أن نحفظ القرآن كما لقنه جبريل لمحمد ﷺ .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ[1] الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

وهنا يُسلِّي الحق سبحانه رسوله الكريم ، ويوضح له أن ما حدث له من إنكار ليس بدعاً ، بل حدث مثله مع غيره من الرسل سواء من إنكار أو تجاهل أو سخرية .

وإذا كنت أنت سيد الرسل وخاتم الأنبياء ؛ فلا بُدَّ أن تكون مشقتك على قَدْر مهمتك ، ولا بُدَّ أن يكون تعبُك على قَدْر جسامة الرسالة الخاتمة .

و ﴿ شِيَعِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجر]

تعنى الجماعة الذين اجتمعوا على مذهب واحد ؛ سواء كان ضلالاً أم حقاً . والمثَل على مَن اجتمعوا على باطل هو قوله الحق :

﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ[2] شِيَعًا .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنعام]

والمثَل على مَنْ اجتمعوا على الحق قوله سبحانه :

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ[3] لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الصافات]

وهكذا تكون كلمة (شِيع) تعنى الجماعة التى اجتمعت على الحق أو الباطل .

---

(١) الشيع : جمع شيعة ، وهي الفرقة من الناس يتابع بعضهم بعضاً . وشيعة الرجل : أتباعه وأنصاره ، ومن على مذهبه ورأيه . [القاموس القويم ١/٣٦٣] .

(٢) يلبسكم شيعاً : أى : يُعمى الأمور عليكم فتصيرون فرقاً مختلفة . [القاموس القويم ٢/١٨٨] .

(٣) الضمير هنا عائد على نوح عليه السلام . قال ابن عباس : أى من أهل ذريته . وقال مجاهد : من شيعة نوح إبراهيم ، على منهاجه وسنته . وقال قتادة : على دينه . ذكر هذه الآثار السيوطى فى الدر المنثور (٧/١٠٠) .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ (١٠) ﴾ [الحجر]

يعنى أنك لن تكون أقلّ من الرُّسل السابقين عليك ، بل قد تكون رحلتك فى الرسالة شاقّة بما يناسب مهمتك ، ويناسب إمامتك للرسل وختامك للأنبياء .

ويُكمل سبحانه ما حدث للرسل السابقين على رسالة رسول الله ﷺ ، فيقول :

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (١١) ﴾

ونجد كلمة :

﴿ يَسْتَهْزِءُونَ (١١) ﴾ [الحجر]

ونجد أن الحق سبحانه قد أوضح هذا الاستهزاء حين قالوا :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) ﴾ [الحجر]

وكأن الحق سبحانه يُوضّح له أن الاستهزاء قد يزيد ، وذلك دليلٌ على أنك قد بلغتَ منهم مَبْلَغ الكَيْد ، ولو كان كيدُك قليلاً لخففوا كَيْدهم ؛ ولكنك جئتَ بأمر قَاسٍ عليهم ، وهدمْتَ لهم مذاهبهم ، وهدمْتَ حتى سيادتهم وكذلك سَطْوتهم ، ولم يجدوا غير الاستهزاء ليقاوموك به .

ومعنى ذلك أنهم عجزوا عن مقاومة منهجك ؛ ويحاولون بالاستهزاء أن يُحققوا لك الخَوَر[١] لتضعف ؛ معتمدين فى ذلك على

(١) الخَوَر : الضعف والانكسار . وقال الليث : الخوّار : الضعيف الذى لا بقاء له على الشدة . [لسان العرب ـ مادة : خور] .

أن كل إنسان يحب أن يكون كريماً فى قومه ومُعززاً مُكرّماً .

وهنا يريد الحق سبحانه من رسوله أن يُوطِّن نفسه على أنه سيُستهزأ به وسيُحارب ؛ وسيُؤْذَى ؛ لأن المهمة صعبة وشاقَّة ، وكلما اشتدت معاندتك وإيذاؤك ، فاعلم أن هذه من حيثيات ضرورة مهمتك .

ولذلك نجد الرسول ﷺ قبل أن يتأكد من مهمته ؛ أخذته زوْجه خديجة بنت خويلد ـ رضى الله عنها ـ عند ورقة بن نوفل ؛ وعرف ورقة أنه سَيُؤْذَى ، وقال ورقة لرسول الله ﷺ : ليتنى أكون حياً حين يُخرجك قومك . فتساءل الرسول ﷺ : أَمُخرجِىَّ هُم ؟ قال ورقة : نعم ، لم يأت رجل بمثل ما جئتَ به إلا عُودِىَ ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً[(١)] .

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يصحب نزول الرسالة أن يُحصِّنه ضد ما سيحصل له ، ليكون عنده المناعة التى تقابل الأحداث ؛ فما دام سيصير رسولاً ، فليعلم أن الطريق مَحْفوف بالإيذاء ، وبذلك لا يُفاجأ بوجود مَنْ يؤذيه .

ونحن نعلم أن المناعة تكون موجودة عند مَنْ وبها يستعد لمواجهة الحياة فى مكان به وباء يحتاج إلى مَصْل[(٢)] مضاد من هذا الوباء ؛ ليقِىَ نفسه منه ، وهذا ما يحدث فى الماديات ، وكذلك الحال فى المعنويات .

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/١٣٩ ، ١٤٠) من حديث محمد بن النعمان بن بشير الأنصارى . وانظر دلائل النبوة لأبى نعيم (١٦٨) .

(٢) المصل : ما يتخذ من دم حيوان محصَّن من الإصابة بمرض كالجدرى والدفتريا ثم يحقن به جسم آخر ليكسبه مناعة تقيه الإصابة بذلك المرض . [المعجم الوجيز ـ مادة : مصل] .

ولهذا يُوضِّح سبحانه هذا الأمر لرسوله ﷺ ، ولتزداد ثقته فى الحقِّ الذى بعثه به ربُّه ، ويشتدّ فى المحافظة على تنفيذ منهجه .

والاستهزاء - كما نعلم - لَوْنٌ من الحرب السلبية ؛ فهم لم يستطيعوا مواجهة ما جاء به رسول الله ﷺ بالجد ، ولا أنْ يردّوا منهجه الراقى ؛ لذلك لجئوا إلى السُّخْرية من رسول الله ﷺ ، ولم تنفعهم سخريتهم فى النَّيْل من الرسول ، أو النَّيْل من الإسلام ، وفى هذا المعنى ، يقول لنا الحق سبحانه عن مصير الذين يسخرون من الرسول ﷺ :

﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ[(١)] فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

و « سلك الشيء » أى : أدخله ، كما نُدخل الخيط فى ثقب الإبرة . والحق سبحانه يقول :

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ[(٢)] ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [المدثر]

أى : ما أدخلكم فى النار ؛ فتأتى إجابتهم :

﴿ لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [المدثر]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الحجر]

(١) أى : كذلك نسلك الضلال والكفر والاستهزاء والشرك فى قلوبهم . والسَّلْك : إدخال الشىء فى الشيء كإدخال الخيط فى المخيط . [تفسير القرطبى ٥/٣٧٣١] .

(٢) سقر : اسم من أسماء جهنم . [القاموس القويم ١/٣١٧] . قال السيوطى فى الإتقان (١١٣/٢) : « ذكر الجواليقى أنها أعجمية » وقال ابن منظور فى اللسان (مادة : سقر) : « وقيل : سميت النار سقر لأنها تذيب الأجسام والأرواح ، والاسم عربى من قولهم سقرته الشمس . أى : أذابته » .

أى : كما سلكنا الكفر والتكذيب والاستهزاء فى قلوب شيع الأولين ، كذلك نُدخله فى قلوب المجرمين .

يعنى : مشركى مكّة ، لأنهم أدخلوا أنفسهم فى دائرة الشرك التى دعتهم إلى هذا الفعل ، فنالوا جزاءَ ما فعلوا مثل ما سبق من أقوام مثلهم ؛ وقد يجد من تلك القلوب تصديقاً يكذبونه بألسنتهم ، مثلما قال الحق سبحانه :

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ .. (١٤) ﴾ [النمل]

فهم أمة بلاغة ولغة وبيان ؛ وقد أثّر فيهم القرآن بحلاوته وطلاوته[1] ؛ ولكنه العناد ، وها هو واحد[2] منهم يقول :

« إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لَمُثمر ، وإن أسفله لمغدق »[3] .

لقد قال ذلك كافر بالرسول والرسالة .

ونعلم أن الذين استمعوا إلى القرآن نوعان ؛ والحق سبحانه هو القائل عن أحدهما :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) ﴾ [محمد]

أى : أن قوله لا يعجبهم وما يتلوه عليهم لا يستحق السماع ، فقال الحق سبحانه رداً عليهم :

(١) الطلاوة : الحُسْن والقبول والرّونق . [لسان العرب ـ مادة : طلى] .

(٢) هو الوليد بن المغيرة ، أبو عبد شمس ، وقد كان ذا سنٍّ فيهم ، وكبيراً من كبرائهم .

(٣) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٢٧٠) .

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ[1] وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى..(٤٤) ﴾ [فصلت]

وهى مسألة ـ كما أقول دائماً ـ تتعلق بالقابل الذى يستقبل الحدث ؛ إما أنْ يُصفِّى قلبه ليستقبل القرآن ؛ وإما أنْ يكون قلبه ـ والعياذ بالله ـ مُمْتلئاً بالكفر ، فلا يستقبل شيئاً من كتاب الحق .

وقد حدث أن أدخل الحق سبحانه كتبه السماوية فى قلوب الأقوام السابقة على رسول الله ، ولكنهم لفساد ضمائرهم وظُلْمة عقولهم ؛ سَخِروا من تلك الكتب ، ولم يؤمنوا بها .

ويَصِف الحق سبحانه هؤلاء المجرمين بقوله :

﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ[2] سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

وهكذا يوضح الحق سبحانه أن قلوب الكَفَرة لا تلين بالإيمان ؛ ولا تُحسن استقبال القرآن ، ذلك أن قلوبهم مُمْتلئة بالكفر ، تماماً كما حدث من الأقوام السابقة ، فتلك سُنّة مَنْ سبقوهم إلى الكفر .

والسُّنّة هى الطريقة التى تأتى عليها قضايا النتائج للمُقدِّمات ، وهى أولاً وأخيراً قضايا واحدة .

ومرة نجد الحق سبحانه يقول :

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٦٢) ﴾ [الأحزاب]

---

(١) الوقر : ثقل فى السمع أو صمم . [القاموس القويم ٢ / ٣٥٠] .
(٢) خلا الأمر يخلو : مضى وسبق . والقرون الخالية : هم المواضى . [لسان العرب ـ مادة : خلا] .

ونعلم أن الإضافة تختلف حَسْب ما يقتضيه التعبير . فـ (سنة الأولين) تعنى الأمور الكونية التى قدَّرها الله لعباده . و (سنة الله) تعنى سُنَّة منسوبة لله ، ومن سُنَن الحق سبحانه أن يُهلك المُكذِّبين للرسل إنْ طلبوا آية فجاءتهم ، ثم واصلوا الكفر .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ(١) ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ(٢) أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

وهم قد طلبوا أن ينزل إليهم مَلَكٌ من السماء ؛ لذلك نجد الحق سبحانه هنا يأتيهم بدليل أقوى ممَّا طلبوا ، ذلك أن نزول مَلَك من السماء هو أسهل بكثير من أن يُنزِلَ من السماء سُلَّماً يصعدون عليه ، وفى هذا ارتقاء فى الدليل ؛ لكنهم يرتقون أيضاً فى الكفر ، وقالوا : إن حدث ذلك فلَسوفَ يكون من فعل السحر .

ولو كان محمد ﷺ ساحراً لَسحرهم ، وجعلهم جميعاً مؤمنين ، وعلى الرغم من أن مثْل هذا الأمر كان يجب أن يكون بدهياً بالنسبة لهم ، لكنهم يتمادونَ فى الكفر ، ويقولون : إنه لو نزَّل سُلَّماً من السماء وصعدوا عليه ؛ لَكانَ ذلك بفعل السحر ؛ ولكانَ رسول الله هو الذى سحرهم ؛ وأعمى أبصارهم ، ولَجعلهم يتوهمون ذلك .

---

(١) عرج يعرج : صعد وعلا وارتفع . [القاموس القويم ٢/ ١٣] . والمعارج : المصاعد والدرَج . والمعراج : السُّلَّم . [لسان العرب ـ مادة : عرج] .

(٢) سُكِّرت أبصارنا . أى : حبست عن النظر وحُيِّرت . وقال أبو عمرو بن العلاء : معناها غُطيت وغُشِّيت . أى : سُدَّت بالسحر فيتخايل بأبصارنا غير ما نرى . [لسان العرب ـ مادة : سكر] .